صورة الرّجل في رسائل غسّان كنفانيّ لغادة السّمّان

أ. د. سناء كامل أحمد شعلان *

الملخص:

هذه الدّراسة تدرس صورة الرّجل في متن سرديّ يقع في ١١ رسالة عشقيّة للأديب الفلسطينيّ غسّان كنفانيّ التي نشرتها الأديبة السّوريّة غادّة السّمّان بعد استشهاده زاعمة أنّ هذه الرّسائل قد تلّقتها منه في الماضي.

تكوّنت الدّراسة من مدخل إلى رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، وصورة الرّجل التي أبرزتها غادة السّمّان في رسائل غسّان كنفانيّ، وإطلالة على الرّجل العاشق، والذّات العاشقة عند الرّجل/ غسّان كنفانيّ في رسائله، وملامح الرّجل العاشق في الرّسائل الغراميّة عند غسّان كنفانيّ بعيداً عن الصّورة النّمطيّة للرّجل المناضل الثّائر القويّ، والرّجل الذي يصمّم على البوح والكتابة، والكتابة معادل موضوعيّ للحبّ عند الرّجل، والحبّ زمناً للتّاريخ عند الرّجل، وصراع الوعي والواقع عند الرّجل في ظلّ الحبّ.

الكلمات المفتاحيّة: رسائل غراميّة، غسّان كنفانيّ فانيّ، غادة السّمّان.

مدخل إلى رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان:

قامت الأديبة غادّة السّمّان (١) بخطوة جريئة عندما قامت بنشر الرّسائل التي زعمت أنّها وصلت إليها من الأديب الفلسطينيّ الرّاحل غسّان كنفانيّ(٢)، وهي إحدى عشرة رسالة عشقيّة كتبها غسّان كنفانيّ لها بخطّ يده، وهي الباقية من كثير غيرها قد احترق في حريق منزلها في بيروت في مطلع عام ١٩٧٦، وإنّما النّاجي منها قد نجا لأنّ غادة السّمّان قد احتفظت به صدفة في منزلها في لندن.

على الرّغم من الرّدود الكثير والمتباينة حول هذه الخطوة إلاّ أنّ غادة السّمّان ظلّت متمسّكة بصواب قرارها بنشر هذه الرّسائل مصمّمة على أنّ هذه الرّسائل هي جزء من مجمل إنتاج غسّان كنفانيّ؛ بذلك لا يجوز قتلها أو دفنها في السّرّ، وبنشرها لهذه الرّسائل لا تسيء له، أو لمكانته وذكراه، بل هي تخلص له إنسانيّاً وإبداعيّاً على الرّغم من عاصفة الانتقادات التي رافقت نشر هذه الرّسائل التي

---

* أستاذ/ قسم اللّغة العربيّة/ كلّيّة الآداب/ الجامعة الأردنيّة.

عدّها البعض خطوة تآمريّة تهدف إلى أن تشوّه صورة غسّان كنفانيّ المبدع والإنسان والمناضل الفلسطينيّ.

صورة الرّجل التي أبرزتها غادة السّمّان في رسائل غسّان كنفانيّ:

لا أحد يعرف حدود الانتقاء والاختيار في رسائل غسّان كنفانيّ التي تخيّرتْ غادة منها ما شاءتْ، ونشرتْ منها ما شاءتْ، ولعلّها أخفت منها ما أرادتْ، واحتفظتْ لنفسها بما شاءتْ منها، وربما تكون قد أعدمتْ منها ما شاءتْ لسبب أو لآخر، فضلاً عمّا زعمتْ أنّه احترق منها في حريق منزلها في بيروت في مطلع عام ١٩٧٦.

الأمر المؤكّد أنّ هذه الرّسائل -التي نشرتها غادة تقدّم صورة للرّجل/ غسّان كنفانيّ- هي صورة حرصتْ على تقديمها للقارئ بوصفه صورة للرّجل العاشق الذي أحبّته، وأحبّها، ولعلّ هذه الصّورة هي الصّور المثال للرّجال العاشق الذي يروق لغادة، وتريد أن تقدّمه للقارئ، دون أن نعرف هل هذه الصّورة هي حقيقته أم لا.

إطلالة على الرّجل العاشق:

غسّان كنفانيّ قضى حياته مدافعاً بقلمه وموهبته في الكتابة والإعلام عن قضيّة فلسطين، وحُرم من المرأة التي كتب لها رسائله العشقيّة، ولم يستطع أن يحظى بحياة مستقرّة سعيدة معها، وظلّ كلّ منهما يقاتل في سبيل قضيّته حتى أُستشهد الأوّل منهما بعبّوة ناسفة وضعتها الاستخبارات الإسرائيليّة في سيارته.

القضيّة والوطن وحلم التّحرير لم تمنع غسّان كنفانيّ من أن يحمل السّلاح في يدّ، وأن يكتب رسائل الحبّ والعشق بيد أخرى دون أن يؤثّر ذلك على إخلاصه لحبّه الأعظم، وهو حبّه لفلسطين.

غسّان كنفانيّ "يرتفع في العشق حيثُ تختلط الحبّيبة بالثّورة بالقضية بالأرض بالأهل"(٣)، ويدخل في إشكاليّة مهمّة في أدبه، وهي إشكاليّة أن يختفي صوت الحبّ بمستواه الشّخصيّ/ الرّجل والمرأة في حياة شخصيّات الرّوايات والقصص لصالح القضايا الكبرى/ الحبّ الأكبر/ حبّ فلسطين".(٤)

لقد انطلق من انتصاره الكامل على سؤال: هل أنت كاتب أم مناضل؟ فظلّ هذا السّؤال يسكنه، و"بقي غسّان كنفانيّ مطارداً بهذا السّؤال إلى أن بلغ الشّهادة، فهزم السّؤال، وانتصرت كتابة غسّان".(٥)

هذه الدّراسة تتوقّف عند المناضل والكاتب والعاشق في آن عند غسّان كنفانيّ الذي أدرك "أنّ موقف المقاومة لم يكن اختياراً سهلاً بل كان معركة يوميّة مع عدو خبيث يعتبره مسألة حياة أو موت".(٦)

الذّات العاشقة عند الرّجل/ غسّان كنفانيّ في رسائله:

الأديبة العربيّة السّوريّة غادة السّمّان قد قامتْ بخطوة جريئة في المشهد الأدبيّ العربيّ عندما أقدمت على نشر رسائل غسّان كنفانيّ إليها، وهي تبلغ إحدى عشرة رسالة، وهي رسائل عشقيّة كتبها لها بخطّ يده، وهي الباقية من كثير غيرها قد احترق في حريق منزلها في بيروت في مطلع عام ١٩٧٦، وإنّما النّاجي منها قد نجا لأنّ غادة السّمّان قد احتفظت به صدفة في منزلها في لندن(٧)، وعلى الرّغم من الرّدود الكثيرة والمتباينة حول هذه الخطوة، إلاّ أنّ غادة السّمّان ظلّتْ متمسّكة بصواب قرارها بنشر هذه الرّسائل التي خرجتْ –حتى العام ٢٠١٣م- في ست طبعات مُرفق بها ملحق بمقتطفات من آراء نقديّة لـ٢٢٠ كاتبة وكاتب، وهي مصمّمة على أنّ هذه الرّسائل هي جزء من مجمل إنتاج غسّان كنفانيّ؛ بذلك لا يجوز قتلها ودفنها في السّرّ، وبنشرها لهذه الرّسائل لا تسيء له، بل تخلص له إنسانيّاً وإبداعيّاً على الرّغم من عاصفة الانتقادات التي رافقتْ نشر هذه الرّسائل التي عدّها البعض خطوة جريئة لم تشوّه صورة غسّان كنفانيّ المبدع: "وما محاولة اغتيال غسّان كنفانيّ على أيدي الذين فهموا رسائله على أنّها مادة متفجّرة جديدة ستناثر موقعه في ذاكرتنا المفجوعة لن تكون إلاّ إعادة بناء لمقدّماته التي وضعها في ثقافة المقاومة على أمل إيجاد مشروعيّة القدرة على التّصديّ الوطنيّ الشّعبيّ والابتعاد عن مشاريع الرّد البربريّ للقطاع الشّعبيّ ضدّ قطاع السّماسرة ورعاة البقر وأشباه الدّيناصورات"(٨)، ويذهب الكثير من النّقاد والكتّاب إلى أنّ هذه الرّسائل إرث إبداعيّ ، وهو ملك لكلّ للآخرين، ولا يجوز التّستّر عليها.(٩)

ملامح الرّجل العاشق في الرّسائل الغراميّة عند غسّان كنفانيّ بعيداً عن الصّورة النّمطيّة للرّجل المناضل الثّائر القويّ:

في كتاب (رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان) لا نرى الصّورة النّمطيّة للرّجل المناضل الثّائر القويّ صاحب النّفس الرّابطة الجأش التي لا تسمح له بأن يعترف بضعفه أمام الحبّ الذي يتمثّل في

امرأة يعشقها، ولعلّ هذا الأمر بالتّحديد هو من أهمّ المحرّكات التي دفعت الكثير من النّقاد والكتّاب والإعلاميين إلى مهاجمة غادة السّمّان عندما نشرتْ هذه الرّسائل، وعدّوا هذه الخطوة هي خطّة مقصودة من غادة السّمّان لدافع مشبوه للانتقاص من قيمة هذا المناضل الثّائر، وتشويه صورته أمام الجميع، حيث هناك الكثير من الأقلام التي كانتْ ضدّ نشرها، أمثال د. إحسان عبّاس، أحمد بزون، أحمد عبد المجيد، إلياس خوري، إلياس العطروني، أميمة الناصر، بسّام فتيتي، بلال الحسن، تغريد شملاوي، حسب الله يحيى، حسن حميد، حسناء مكداش، حسيب كيالي، حنان الشّيخ، حياة الرايس، خالد الحليّ، خليل السواحري، وغيرهم.

كما كانتْ هناك أقلام أخرى تنتصر لهذا النّشر، أمثال إبراهيم العريس، أحمد الأشقر، أحمد الصّفهانيّ، أحمد سعيد نجم، أحمد عسّاف، أديب عزّت، إسماعيل مروة، أشرف توفيق، انتصار عبد المنعم، أنطوان خليل، أنور الخطيب، آمال مختار، إنعام كجه جي، إيفانا مرشليان، بدري عبد الملك، بسّام الحجّار، بوشخار حمو، بيار شلهوب، جمال الدين، جهاد فاضل، جواهر الرفايعة، جورج طرابيشي، حسين دعسة، حمديّة خلف، حمزة رستناوي، حميد سعيد، حنان بيروتي، حنان خير بك خدّام، حياة الحويك عطية، وغيرهم، وتبدي تأييدها له من منطلق أنّ هذه الرّسائل هي جزء من مجمل الإنتاج الإبداعي لغسّان كنفانيّ، وهي ملك لغادة السّمّان، ولها أن تفعل بها ما تشاء، في إزاء موقف الرّافضين لنشر هذه الرّسائل يرون أنّ الرّسائل الشّخصيّة ليست جزءاً حقيقيّاً من الإنتاج الإبداعيّ لأيّ مبدع كان.(١٠)

لكن غادة السّمّان تدافع عن صورة غسّان كنفانيّ الإنسان، وترى أنّ الصّورة النّمطيّة التّقليديّة المعروفة للمناضل هي قيد لا معنى له، وأنّ صورة غسّان كنفانيّ الإنسان هي صورة الإنسان البطل بحقّ عندما تقول في وصفه: "لم يكن فيه من الخارج ما يشبه صورة البطل التّقليديّة: قامة فارعة، صوت جهوريّ زجاجيّ، لا مبالاة بالنّساء(إلى آخر عدّة النّضال)؛ لأنّه كان ببساطة بطلاً حقيقيّاً، والأبطال الحقيقيون يشبهون الرّجال العاديين رقّة وحزناً لا نجوم السّينما الهوليوودية الملحميّة".(١١)

نستطيع أن نرسم ملامح غسّان الكنفانيّ في هذه الرّسائل عبر جملة من الصّور والمشاعر والأحاسيس والبوح الذي خطّه بكلّ صدق وصراحة وجرأة فيها ، والغريب اللاّفت للنّظر في هذه الملامح أنّها في جلّها ملامح بعيدة عن ملامح الرّجل المناضل الثّائر، بل إنّ بعض هذه الملامح تغاير وتفارق الملامح المتوقّعة والرّتيبة لملامح صورة الرّجل المناضل الثّائر، كما هي عالقة في المخيال

الجمعيّ والسّرديات التّاريخيّة والتّصويريّة والحكائيّة بمتونها جميعاً أكانت شفاهيّة أم كتابيّة، وهي ملامح تنبع من حقيقة دواخل غسّان كنفانيّ بكلّ ما فيها من ضعف وقوّة وانهزام أمام الحبّ.

إنّها باختصار دواخل الرّجل الإنسان بصدق وجرأة، دون تصنّع أو كذب أو خجل أو مراوغة، وليس أمام المتلقّي إلاّ أن يتعامل مع هذه الملامح وفق أفق التّقبّل؛لأنّ هذه المتون النّصيّة على شكل رسائل شخصيّة ليست إلاّ حقيقة نابضة من شخصيّة غسّان كنفانيّ وحياته، ولا يمكن أن نسقطها من حساباتنا، وأن نتعامل معها، وكأنّها لم تكن؛ فهي حقيق واقعة، وليس لنا أمام هذه الحقيقة إلاّ أن نتعامل معها بأدوات المتلقّي الذي من حقّه أن يحلّل، وأن يركّب، وأن يخرج بتصوّراته غير الملزمة لغيره ما لم يستطع أن يقدّم لها تخريجات مقنعة.

نحن نستطيع أن نفهم الحبّ في حياة غسّان كنفانيّ من مبدأ إثبات الوجود في حياته ورفض الموت والاندثار انطلاقاً من مقولة القائل: "إنّ الإنسان يدرك أنّه حيّ عندما يحبّ".(١٢)

هذه الملامح نجملها فيما يلي:

١- **العاشق الذي يعترف بالحبّ بكلّ صدق وجرأة:**

بعيداً عن شخصيّة غسّان الكنفانيّ المعروفة بالقوّة والتّجلّد والإصرار على المواقف انتصاراً لكبريائه وأفكاره وقناعاته، إلاّ أنّنا نجده في هذه الرّسائل ينتصر على قوّته بالضّعف، ويعلن مرّة تلو الأخرى حبّه بين يدي غادة السّمّان، فيقول لها: "إنّني أحبّك: أحسّها الآن والألم الذي تكرهينه -ليس أقلّ ولا أكثر ممّا أمقته أنا- ينخر كلّ عظامي"(١٣)، "إنّني أحبّك إلى حدّ أستطيع أن أغيب فيه"(١٤)، "إنّني أحبّكِ أيّها الشّقيّة كما لم أعرف الحبّ في حياتي"(١٥)، "أعرف أنّني أحبّكِ، وأعرف أنّني إذا فقدتكِ فقد فقدتُ أثمن ما لدي، وإلى الأبد". (١٦)

لكنّه في إزاء هذا الإصرار على البوح بحبّه، إلاّ أنّه يتعالى على ضعفه بأن يقول لغادة السّمّان: "أنا لا أريد منكِ شيئاً، ولا أريد-بنفس المقدار- أبداً أبداً أن أفقدكِ"(١٧)، وإن كان يعود، ويطلب من غادة السّمّان أن تعود إليه: "مأساتي ومأساتك أنّني أحبّكِ بصورة أكبر من أن أخفيها وأعمق من أن تطمريها. أترك في نفس المكان؟ إذن يا للمأساة التي لن تنهي! أقول لكِ: تعالي، ودعينا نهدم الجدران جميعاً، إنّ حياتنا أصغر من أن نهدرها في الشّطارة. أعترف!". (١٨)

هذا العاشق الفريد من نوعه الذي يملأ الدّنيا برسائل حبّه لا يخجل من أن يقبل بالذّل من المرأة التي يحبّها: "يخيّل لي أحياناً أنّها أمام النّاس تحاول إذلالي. إنّ ذلك لا يغضبني (نعم فقد وصلتُ إلى هذا الحدّ)، ولكن لماذا؟ ما الذي يدفع إنساناً ما إلى تمزيق إنسان آخر يحبّه بهذه القوّة؟ (١٩)."

لقد رأى الكثير من النّقاد في هذا الملمح من شخصيّة غسّان كنفانيّ الإنسان ملمح جمال وعظمة، وإن بدا في الظّاهر الخادع أنّ فيه انتقاصاً من شخصيته النّضاليّة المتوقّع منها أن تكون فوق أيّ ضعف كان لا سيما أمام ضعف القلب، وكأنّه ليس من جنس البشر، بل من جنس الشّخصيّات الورقيّة التي نرسمها وفق أهوائنا لا وفق الحقائق، وفي ذلك يقول حسين سرمك حسن: "لقد احتجّ الكثيرون على نشر هذه الرّسائل بحجّة أنّها تسيء إلى صورة بطلنا، وأنا أعتقد أنّ هذا الاحتجاج بالإضافة إلى أنّه مرتبط بمقاوماتنا الشّعوريّة التي تحاول السّيطرة على دوافعنا المتململة تحت قبضة الكبت، فعظمة بطلنا تكمن في أنّه لم يكن يخجل من تلك الدّوافع، وأعلنها بجرأة. وقد تبع بطلنا صوت قلبه حتى النّهاية، وكان حقيقيّاً ورائعاً في لحظات ضعفه، وكان كبيراً حتى في تناقضاته".(٢٠)

٢- العاشق الذي يدرك أنّ المرأة التي يعشقها هي قبلة غيره من الرّجال:

على الرّغم من الأنفة والكبرياء المعروفة في غسّان كنفانيّ، وهي ثوابت عنده لا تقبل النّقاش أو التّشكيك، إلاّ أنّنا نجد أنّ الحبّ يدفع هذا البطل إلى أن يقبل بحقيقة أنّ المرأة التي يعشقها هي قبلة غيره من الرّجال، وهو يقبل –في موقف غير متوقّع منه- أن يكون واحداً من المتنافسين على قلب هذه المرأة، فهو يقول لغادة السّمّان في إحدى رسائله: "أعرف أنّ الكثيرين كتبوا لك... "(٢١)، وهو على الرّغم من إدراكه لهذه الحقيقة إلاّ أنّه يصمّم على أن يقامر بقلبه على طاولة عشقّه للمرأة التي اختارها قلبه.

في الوقت ذاته هو يؤمن إيماناً عميقاً بأنّ غادة هي فوق الشّبهات كلّها على الرّغم من أنّ الكثير من الرّجال حولها يطمعون فيها: "إنّني أعرفك إنسانة رائعة، وذات عقل لا يصدّق، وبوسعك أن تعرفي ما أقصد... كنتُ أحسّكِ أكبر منهم بما لا يُقاس، ولم أكن أخشى منهم أن يأخذوا منك قلامة ظفركِ"(٢٢)، وإن كان يخشى في كثير من الأحيان أن تتركه، وأن تذهب إلى رجل غيره : "ماذا

تراكِ تفعلين الآن؟ أعوّضتِ غسّانكِ التّعيس؟ هل وُفّقتِ في استبدال سذاجته وحدّته وضيق أفقه وسخافاته (واستقامته الطّفلة) بشيء أكثر جدوى؟ "(٢٣)، لاسيما أنّه يؤمن بأنّ غادة السّمّان قد تعذّبت كثيراً في حياتها، وهي وحيدة، و"لا تستطيع أن تردم الهوّة بينها وبين العالم إلاّ بالرّجال".(٢٤)

في بعض الأحيان من الخصام بينهما لا يمتنع غسّان كنفانيّ عن التّشكيك في إخلاصها له: "أنتِ صبيّة وفاتنة وموهوبة، وبسهولة تستطيعين أن تدرجي اسمي في قائمة التّافهين، وتدوسي عليه وأنتِ تصعدين إلى ما تريدين، ولكنّني أقبل، إنّني أقبل حتى هذه النّهاية التّعسة!". (٢٥)

٣- العاشق الذي يبكي بسبب الحبّ، ويتعذّب به:

من باب أنّ "الحبّ ليس حكراً على أولئك الخانعين، ولا يُمكن أن يُعاب على مناضل حبّه لامرأة" كما يقول أحمد الأشقر(٢٦)؛ فإنّ غسّان كنفانيّ يعترف في هذه الرّسائل بأنّ الحبّ قد غلبه، وأنّه يقوده إلى البكاء، إذ يقول: "أنا الذي قاومتُ الدّموع ذات يوم وزجرتها حين كنتُ أُجلد أبكي"(٢٧)، بل إنّه يعترف بأنّ هذا الحبّ يعذّبه عذاباً عظيماً لاسيما في غياب غادة السّمّان التي لا تتواصل معه بالقدر الذي يتمنّاه، ولا تكتب له الرّسائل وهو من يلحّ عليها أن تكتب الرّسائل له ردّاً على ما يصلها من رسائل منه: "صدقيني يا غادة أنّني تعذّبتُ خلال الأيّام الماضية عذاباً أشكّ في أنّ أحداً يستطيع احتماله".(٢٨)

هو يرجو حبيبته أن تسمح له بأن يبقى إلى جانبها: "أرجوكِ، دعيني معكِ، دعيني أراكِ، إنّكِ تعنين لي أكثر ممّا أعني لكِ، وأنا أعرف، ولكن ما العمل؟"(٢٩)، بل إنّه يرجو من حبيبته أن تهبه حبّها مادام لا يستطيع أن يكرهها"إنّني لا أستطيع أن أكرهكِ، ولذلك فأنا أطلب حبّكِ".(٣٠)

كثيراً ما يضع غسّان كنفانيّ شكواه وألمه بين يديّ غادة السّمّان، ويشتكي من قسوتها عليه: "لماذا أنتِ معي هكذا؟ أنتِ تعرفين أنّني أتعذّب وأنّني لا أعرف ماذا أريد. تعرفين أنّني أغار، وأحترق وأشتهي وأتعذّب. تعرفين أنّني حائر وأنّني غارق في ألف شوكة بريّة، تعرفين، ورغم ذلك فأنتِ فوق ذلك كلّه تحولينني أحياناً إلى مجرّد تافه آخر، تصغّرين ذلك النّبض القاتل الذي يهزّني كالقصبة، معك وبدونك".(٣١)

غسّان في الإطار ذاته يتكلّم بصدق عن مشاعره إزاء ما يسمعه من إشاعات تدور حول علاقته بغادة السّمّان إذ يقول: "يقولون هذه الأيام في بيروت وربما في أماكن أخرى، أنّ علاقتنا هي علاقة من طرف واحد، وأنّني ساقط في الخيبة، قيل إنّني سأتعب ذات يوم من لعق حذائكِ البعيد، يُقال إنّك لا

تكترثين بي، وأنّكِ حاولتِ أن تتخلّصي مني، ولكنّنني كنتُ ملحاحاً كالعلق، يشفقون عليّ أمامي، ويسخرون مني ورائي".(٣٢)

لكن على الرّغم من عذابات غسّان كنفانيّ في هذا الحبّ إلاّ أنه يصمّم على انتظار المرأة التي يحبّها مهما كلّفه الأمر: "أنتظركِ، انتظركِ، أنتظركِ، وأفتقدكِ أكثر ممّا في توق رجل واحد أن يفتقد امرأة واحدة، وأحبّك، ولن أترك أبداً سمائي التي تحدّثت عنها"تفجّر الثّلج"، إنّني فخور بآثار خطواتنا، ولا أريد لشيء حتى السّماء أن تكنسها".(٣٣)

هو في آخر المطاف يُعلن بصراحة قوله: "دونكِ أنا في عبث، أعترفُ لكِ مثلما يعترف المحكوم أخيراً بجريمة لم يرتكبها وهو في طوق المشنقة كي يبرّر لنفسه نهاية لا يريدها"(٣٤)، وشأنه في رسائله جميعها أنّه لا يخجل من الحزن والبكاء بين يدي الحبّيبة، ولا ضير في ذلك كما تقول إنعام كجه جي: "إنّ الرّجال لا يبكون هي عبارة لا وجود لها إلاّ في قواميس الجلادين والتّماسيح، وغسّان كان أديباً يعيش بالحبّ وللحبّ. (٣٥)

غسّان كنفانيّ يساوي بين حبّه لغادة السّمّان وحبّه لفلسطين من حيث الشّعور بهما في وجدانه: "أنتِ في جلدي، وأحسّكِ مثلما أحسّ فلسطين: ضياعها كارثة بلا أيّ بديل، وحبّي شيء في صلب لحمي ودمي، وغيابها دموع تستحيل معها لعبة الاحتيال". (٣٦)

الألم العظيم الذي يسيطر على غسّان كنفانيّ في رسائله هو شعوره بالنّدم والحزن لفقده لغادة السّمّان: "لكن كيف تركتكِ تذهبين؟ ... ليس عندي، أيّتها الطّليقة، يا خبزي ومائي وهوائي، إلاّ النّدم، وبعيداً في قراره توجد بذرة للشّجرة القادمة".(٣٧)

٤- العاشق الذي يرى حبيبته في منزلة أرفع من منزلته:

غسّان كنفانيّ الرّجل والرّجل المناضل الثّائر والمبدع الجريء القويّ الذي ينطلق من تقيم عالٍ لنفسه، ينقلب في هذه الرّسائل إلى رجل يرى نفسه في منزلة دون منزلة حبيبته التي يراها في منزلة عليا؛ لذلك هو لا يستحقّها، فيقول: "أعرف في أعماقي أنّني لا أستحقكِ ليس لأنّني لا أستطيع أن أعطيك حبّات عينيّ ، ولكن لأنّني لا أستطيع الاحتفاظ بكِ إلى الأبد"(٣٨)، "أعرف أنّني لا أستحقّكِ".(٣٩)

لعلّ غسّان يرى حبيبته في هذه المنزلة العليا انطلاقاً من الفلسفة التي تقول: "من الحمق واللاّجدوى أن يُقال للمحبّ إنّ موضوع حبّه ليس جميلاً؛لأنّ جوهر الحبّ قائم في العجز عن رؤية الموضوع "غير جميل".

على هذه الظّاهرة يتأسّس الحبّ إلى الحدّ الذي يدفعنا إليه القول إنّ المحبّ يرى لا الإنسان الواقعيّ، لا المحبوب بعينه الذي ينظر إليه الجميع ولا يجدون فيه شيئاً مميّزاً، إنّما جانبه الملائكيّ، شبهه، نظيره السّماويّ الأجمل". (٤٠)

٥- العاشق الشّبق (٤١):

في هذه الرّسائل يتنكّر غسّان كنفانيّ لصورة المناضل في لبوسها التّقليديّ، وهو لبوس تسخر غادة السّمّان منه علانيّة إذ تقول في محاولة تقديمها لهذا الكتاب "صورة البطل التّقليديّة: ... لا مبالاة بالنّساء".(٤٢)

فهذه الصّورة دون شكّ هي صورة غير حقيقيّة؛ لأنّها بكلّ بساطة تسلخ الإنسان عن احتياج حقيقيّ ومركزيّ في وجوده الإنسانيّ بل وفي استمراره نسله، وهو احتياج الرّجل للمرأة واحتياج المرأة للرّجل.

غسّان كنفانيّ في هذه الرّسائل هو شبق بمستوى ما، وأيّاً كان مستوى هذا الشّكل وحقيقته، فإنّه قد مارسه بطريقته الخاصّة، ولنا أن نفهمه من منطق أنّ "جميعنا منازل صغيرة دائمة للشّبق، ولدينا باستمرار أفكار شغف. هذه الأفكار ليستْ دائماً عن الجنس، لكنّها دائماً عن الرّغبة، ابتغاء الأشياء، القوّة، الجنس، الانتصار، كلّ شيء وأيّ شيء يجعلك تشعر بالرّغبة والشّبق". (٤٣)

إنّ غسّان كنفانيّ عندما يكتب عن شبقه الجنسيّ بغادة السّمّان إنّما تكون كتابته امتداداً لما هو في التّراث العربيّ القديم "الذي تناول موضوع الجسد أو كان له صلة به(وهو واسع ومتنوّع)، غير مكتشف بالنّسبة للقسم الأعظم منه، وذلك فيما يتعلّق بكيفيّة مفهوميته للجسد، ولدى المواد المكتوبة من الحقب التّاريخيّة المبكّرة الكثير مما يمكن أن تقدّمه لمثل هذا الاستكشاف، بما في ذلك مجموعة معتبرة من الشّرعيّة الجنسيّة الذي ألف معظمه الرّجال ونظم من الشّعر الجنسيّ، وكم وافر من الأدب الإباحيّ، إضافة على مجموعة كبيرة من الأعمال الطّبيّة التي تعود إلى العصور الوسطى وما قبلها"(٤٤)، لاسيما أنّ الجنس هو"اللّعبة الأروع التي تشدّ الحياة من الجذور"(٤٥) في

خضمّ أنّ "الجسد هو محور العلاقات بالعالم بالمكان والزّمان"(٤٦)، والمبدع عندما يوثّق شبقه الجنسيّ إنّما هو "يقبض على اللّحظات المنصرمة لا يودّ أن يقذف بها إلى النّسيان"(٤٧).

غسّان كنفانيّ عندما يكتب صرخات الجسد، فهو يكتب سفراً يسجّل "أقدم لغات الدّنيا هي لغة الجسد لغة الجنس، لقد كانت، ومازالت الأقدر من اللّغة المنطوقة على توصيل المشاعر والأحاسيس بكلّ صدق وبدون نفاق أو مواربة، إنّها لغة صريحة وجريئة، ولا نستطيع تزييفها حتى ولو أردنا ذلك"(٤٨)، وذلك من منطلق أنّ "هناك فضاء رحبا وفسيحا يقوم فيما بين الجسدين المذكّر والمؤنّث، فالجسد المذكّر يمثّل اللّغة والتّاريخ، أمّا الجسد المؤنّث فهو قيمة ذهنيّة معلّقة في فضاء اللّغة وفضاء التّاريخ"(٤٩)، ونستطيع القول إنّ غسّان كنفانيّ عندما كتب هذه الرّسائل كان ينطلق من نظرية تقول: "يجب أن نقيّد أنفسنا بإكراهات لكي نبدع بحريّة"(٥٠)، وهذه الإكراهات كانت اجتماعيّة وثقافيّة، لكنّه ثار عليها مقرّراً "أنّ الإبداع يدعو دائماً إلى الانفتاح والتّمازج المستمرّ بين الثّقافات المختلفة"(٥١)، و"الإحساس هو ما يكشف الجمال لنا، ويجعلنا نعيش تجربته حين يثير في نفوسنا العاطفة الفنيّة التي تستولي علينا كلّما عَنَّ لنا شيء يسلب عقولنا بروعة صورته"(٥٢)، فإكراهات المجتمع وتابواته تحرّم على غسّان كنفانيّ أنّ يصرّح بثورة جسده وشبقه واحتياجاته، لكنّه يثور على هذه التّحريمات المتساقطة في نظره، ويكتب ما يشاء لحبيبته غادة، وهو يدرك دون شكّ أنّه يتحدّى سلطة مجتمعيّة، وأنّ "الصّراع بين الحريّة والسّلطة هو أحد الصّفات الأكثر وضوحاً في أجزاء التّاريخ المألوفة لدينا منذ القدم"(٥٣)، كما أنّه يدرك في الوقت نفسه أنّ ثورته على هذه السّلطة عبر رسائله إنّما تعتمد على طاقته الثّوريّة ؛إذ إنّ "القدرة أو الاقتدار مرتبطة بخصائص الفرد، فهي ملك لشيء أو لشخص وتشكّل جزءاً من طبيعته"(٥٤)، وهو عندما يكتب عن شبقه الجنسيّ في مجتمع صفته العامّة هي المحافظة إنّما يولّد حالة حداثة خاصّة لاسيما أنّ "كلّ الاتّجاهات الأدبيّة التي ظهرت في القرن الماضي وبدايات القرن الحالي كانت محاطة عموماً بمظاهر الصّراع الاجتماعيّ من أجل الحداثة، وفي عصرنا فإنّ الفنّ يعتبر قوّة مضادّة في صراع مع بلادة وسخافة العصر، وبصيغ كلاميّة دفاعيّة توضّح شرعيّة الفنّ الحديث"(٥٥)، وغسّان كنفانيّ يتقمّص بحقّ دور المثقّف الذي "يمارس دوره في تفكيك المنظومة السائدة وتفحّص مقوماتها ومناقبها ومثالبها، والعمل في الوقت ذاته على تأسيس منظومة مجتمعيّة صالحة للارتقاء بمجتمعه، فهو يتحمل مسؤوليتين كبيرتين: المسؤوليّة الثّقافيّة من خلال استيعاب ثقافة الأمّة

وتمحيص غثّها من سمينها، وتجاوز ذلك بتحديث الثقافة... والمسؤوليّة الاجتماعيّة من خلال تفعيل الطّاقات المجتمعيّة تجاه أفكاره، والتّعبير عن ضمير المجتمع، وتقريب المسافة بين المنشود والموجود".(٥٦)

غسّان كنفانيّ يكتب إلى حبيبته كتابة الرّجل العاشق إلى المرأة المعشوقة، فيتغزّل بها، ويشتاق لجسدها، ويبدي لها شبقه الجنسيّ المستعر، ولا يرى في ذلك انتقاصاً من قيمته ورجولته، بل قد يكون حال الأمر على عكس ذلك؛ فيكتب لها إنّه يشتهي شفتيها، وأنّه يشتهيها: "سأترك شعري مبتلاً حتى أجفّفه على شفتيك"(٥٧)، "أحسّ نحوك هذه الأيّام –أعترف- بشهوة لا مثيل لها"(٥٨)، "سأترك بيادر القشّ تلتهب في صدري وجسدي حتى يأتي ذات يوم فتطفؤها فيه راحتاكِ"(٥٩)، وهو يعلن المرّة تلو الأخرى أنّه يريد الحصول على جسدها: "إنّني أريدكِ وأحبّكِ وأشتهيكِ". (٦٠)

يقول لها كذلك: "أقول لكِ دون أن أغمض عيني ودون أن أرتجف: إنّني أنام إلى جوارك كلّ ليلة، وأتحسّس لحمكِ وأسمع لهاثكِ وأسبح في بحر العتمة مع جسدكِ وصوتكِ وروحكِ ورأسكِ، وأقول وأنا على عتبة نشيج: يا غادة يا غادة يا غادة".(٦١)

هو يملك الجرأة ليهتف بأعلى صوته إنّه يشتهي غادة السّمّان: "إنّني أشتهيكِ، ولا أستحي لأنّكِ صرتِ الشّيء الوحيد الذي أخفق له. هل سأراك حين تعودين؟ أم تفضّلين الكفر بتلك السّاعات التي جبلتْ في لحمنا حتى القرار؟.(٦٢)

يقدّس غسّان كنفانيّ الحبّيبة إلى درجة أنّه يراها إلهاً، وهو يصدر من أنّ الجنس من الموضوعات التي ألهبت المخيلة الإنسانيّة منذ طفولتها لما له من علاقة وثيقة بفطرة الإنسان، وبحلمه الأزليّ في الخلود المتمثّل في الذّريّة.

لقد أحاط بهذا الموضوع الكثير من الهالات والمبالغات لدرجة جعلت بعض الحضارات تقدّس الجنس والأعضاء الجنسيّة(٦٢)، وقد كان للأدب نصيب يذكر في هذا الموضوع ؛ إذ إنّ الجنس دفع بالخيال نحو عوالم مدهشة ترسم بريشة عجيبة أسرار اللّقاءات الجسديّة، وتُغرق القارئ في عوالم من الهلوسات والنّشوة وفقدان الوعي وتتردّى أحياناً في دنيا الشّذوذ والخروج عن المألوف الذي يحفّز الخيال على تجاوز ذاته نحو كلّ جديد إذ"استخدمت قوة الحافز الجنسيّ كاستخدام البارود في

الرّصاصة لدفع الخيال إلى مدارك جديدة"(٦٣)، كما أنّ الجنس قادر على تحريك ملكات الإنسان جميعها في اتّجاه درب الخيال والابتكار. (٦٤)

لقد "قدّس الإنسان منذ الأزل الدّافع الجنسيّ، وعدّه قبساً إلهيّاً يربطه بالمستوى النّورانيّ الأسمى، ففي الفعل الجنسيّ يتجاوز الإنسان شرط الزّمانيّ والمكانيّ ليدخل في حال هي أقرب ما تكون إلى الآن الأبديّ، فينطلق من ذاته المعزولة ليتحد بقوة كونيّة تسري في الوجود الحيّ، فيفتح مخزون الطّاقة الحبّيسة لترجع إلى مصدرها الذي منه شعّت وفي أجساد الأحياء أُودعت. (٦٥)

من هنا نستطيع أن نفهم لماذا عُدّ عضو الجنس رمزاً للخلق ولمنح الحياة، ولماذا كانت الأعضاء التناسلية تُقدّس، وينظر إليها باحترام واهتمام(٦٦)، ولماذا للجنس هذه المكانة في الفكر الأسطوريّ، ويبدو أنّ ذلك يُفهم عبر النّظر من الزّاوية ذاتها التي علّل الإنسان الأوّل بها الدّافع الجنسيّ، فقد رأى أنّ الجنس نشاط صادر عن قوة شاملة متمثّلة في الآلهة، تودعها في الأجساد ثم تستثيرها؛ بذلك فالجنس ليس استجابة لغرض دنيويّ، وتحقيقاً لمتعة فرديّة، بل هو استجابة لنداء مبدأ كونيّ شامل. (٦٧)

من هذا المنطلق نستطيع القول إنّ الجنس أسطوريّاً ليس نشاطاً جسديّاً تفريغيّاً هدفه المتعة، بل هو عملية انتظام والتصاق بناموس الحياة الأكبر، وانتماء عملي لدورة الحياة والطّبيعة والتّجدّد.

الرّجل الذي يصمّم على البوح والكتابة:

يحمل غسّان كنفانيّ في هذه الرّسائل إصراراً على عدم كتابة قصّة حبّه لغادة السّمّان، ذلك عندما يعلن ذلك صراحة عندما يقول: "إنّ قصتنا لا تُكتب، وسأحتقر نفسي لو حاولتُ ذات يوم أن أفعل"(٦٨)، كأنّه في هذا الشّأن يرهص بهذا الرّفض لما ستقوم به غادة السّمّان من نشر رسائله إليها بعد موته، فهو كان يضع عشقه ورسائله في مسافة واضحة من الرّفض لنشر بوحه الذي خصّ حبيبته غادة به، ولا يبدو أنّه ما كان يرغب في أن ينُشر علانيّة، ويكون مشاعاً بين العامّة والخاصّة، وهذا النّص الصّريح في هذا الشّأن يخالف ما تذكره غادة السّمّان في محاولة تقديمها لهذه الرّسائل عندما تزعم أنّها وغسّان قد تعاهدا منذ زمن على نشر هذه الرّسائل بعد موتهما قائلة: "لم يدر بخلدي يومئذ أنّني سأكون الأمينة على تنفيذ تلك الرّغبة الكنفانيّة – السّمّانيّة المشتركة".(٦٩)

هي ترى أنّ نشر هذه الرّسائل سيفرح غسّان كنفانيّ في قبره؛ لأنّ في نشرها إحياء لذكر شهيد نقيّ يستحقّ من ذاكرتنا حيزاً أكبر من الذي رصدناه له. (٧٠)

يمكن القول إنّ غادة لم تحترم رغبة غسّان في عدم نشر رسائله على الرّغم من إدعائها أنّه كان يرغب في نشرها، في حين يرى الكثير من النّقاد أنّه يستحيل أن يكون غسّان كنفانيّ قد أذن لها بنشر هذه الرّسائل الشّخصيّة كما يقول أحمد بزون. (٧١)

لكنّ غادة السّمّان ترى في نشر هذه الرّسائل اكتمالاً لحالته الإبداعيّة بما في هذه الرّسائل من قيمة فنيّة عالية كانت ستموت في النّسيان لو لم تنشرها، وأبقت عليها مدفونة في خزانة أسرارها ومساحات ذاكرتها: "الوفاء ليس فقط لعاطفتي الغابرة المتجدّدة أبداً نحوه، بل وفاء لرجل مبدع من بلادي اكتمل بالموت؛ لأنّه كان أكثر صدقاً من أن يسمح له عدوّه بالحياة والكتابة والاكتمال بالعطاء".(٧٢)

هي تشير في الوقت نفسه إلى رغبتها الحقيقيّة في نشر رسائلها إليه – التي تقدّم إثراء لمنتج غسّان كنفانيّ الإبداعيّ(٧٣) – لاسيما أنّ الكثير من الأقلام قد ندّدت بموقف غادة السّمّان التي نشرت رسائل غسّان إليها، ولم تنشر رسائلها إليه، وعدّوا ذلك نوعاً من الكذب والتّضليل كما قال د. إحسان عبّاس: "فهذا الكتاب كان يجب أن يضمّ كلّ رسالة وجوابها؛ لذلك فهو في شكله الحالي يمثّل نصف الحقيقة والذي يكون أشدّ تضليلاً من الكذب". (٧٤)

لكن غادة السّمّان تقول إنّ ما يمنعها من نشر رسائل غسّان كنفانيّ له أنّها ليست في حوزتها، بل في حوزة أحد ما قد ورثها بعد استشهاد غسّان كنفانيّ، وهي تعدّ هذه الرّسائل حق للقارئ العربيّ؛ لذلك توجّه نداء إلى من يملك أو تملك هذه الرّسائل أن يمدّها بها كي تنشرها بدورها ليكتمل المشهد العاطفيّ الإبداعيّ في هذه الرّسائل المتبادلة بينهما معلنة أنّها تتصدّى لسلطة المجتمع كي تعيش حرّيتها دون خوف من تابواته من منطلق أنّ "الصّراع بين الحريّة والسّلطة هو أحد الصّفات الأكثر وضوحاً في أجزاء التّاريخ المألوفة لدينا منذ القدم".(٧٥)

الكتابة معادل موضوعيّ للحبّ عند الرّجل:

في كتاب "رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان" يصنع غسّان كنفانيّ من كتابة الرّسائل لغسّان كنفانيّ معادلاً موضعيّاً للحبّ عنده، فهو يصرّح أنّ الكتابة لغادة هي ذاتها حبّ لها بشكل آخر؛

لذلك ما دام يحبّها فهو مستمرٌّ في الكتابة؛ لذلك كلّما أراد أن يعاهدها على ديمومة حبّه لها، فإنّه يعدّها باستمرار الكتابة لها: "سأكتب لك أطول وأكثر"(٧٦)، "سأكتبُ لكِ وأنا أعرف أنّني قد أصل قبل رسالتي القادمة، فسأغادر القاهرة يوم ٥ كانون وتأكّدي: لا شيء يشوّقني غيرك"(٧٧)، وهو يربط هذه الكتابة بكلّ أفعال الحياة؛ لأنّ حبّه لغادة السّمّان مرتبط بفعاليّات حياته جميعها: "أريد أن أكتب لكِ، أن أكتب لك كلّ لحظة، ليل نهار: في الشّمس التي بدأت تشرق بحياء، تحت سياط الصّقيع، في الصّباحِ البارد والمساء والعتمة، في ضياعي وجنوني وموتي".(٧٨)

من هذا المنطلق للمعادل الموضوعيّ يطلب غسّان الكنفانيّ من غادة أن تكتب الرّسائل له؛ لأنّه يعدّ كتابتها لها هي استمرار في فعل حبّها له: "حاولي أن تكبتي لي... فسيكون أحلى ما يمكن أن يلقاني حين عودتي رسالة منكِ لأنّني أعرف أنّك لن تأتين"(٧٩)، "اكتبي لي... أحتاج إلى حروفكِ لأفرش أمامها راحتي التّواقتين لك!"(٨٠)، "اكتبي لي. هذه اللّحظة وقولي: سأظلّ معكَ وسنظلّ معاً؟"(٨١)، ويسألها دائماً متى ستكتب له، وكأنّه يسألها متى ستحبّه بصدق: "متى ستكتين لي حقّاً؟ متى ستشعرين أنّني أستحقّكِ؟"(٨٢)، "أرجوكِ: اكتبي لي"(٨٣)، وهو يتألّم؛ لأنّها تضنّ عليه بكتابة الرّسائل؛ فهو يرى في ذلك أنّها تضنّ عليه بحبّها ما دامت كتابة الرّسائل عنده هي معادل موضوعيّ للحبّ: "لقد آلمتني رسالتك. ضننتِ عليّ بكلمة حارّة واحدة، واستطعتِ أن تظليّ أسبوعاً أو أكثر دون أن أخطر على بالكِ! ياللخيبةٍ".(٨٤)

عندما تجود غادة السّمّان برسالة عليه، وهو مَنْ ينتظرها منذ زمن طويل، يشعر بسعادة غامرة تجتاحه، ويدمع، ويكاد يبكي: "لقد كانت رسالتكِ فوق الكوم كلّه، وقالتْ لي: صباح الخير! أقول لكِ: دمعتُ"(٨٥)، فرسائلها إليه هي ما تسعده، وتفرح روحه: "وصلتني رسالتك، فيهما قصاصات من الأوراق الخاصّة. بحركة صغيرة، شحطة فوق نهايات الحروف أعدتِ إلى عالمي المعنى والتّوهّج"(٨٦)، "نزلت عليّ رسالتكِ كما المطر على أرض أعتصرها اليباس، مكانكِ لا يملأ، كلماتكِ وحدها التي لها صوت يغطس في أعماقي". (٨٧)

حتى عندما يكون غسّان كنفانيّ في أشدّ حالاته بؤساً ووحدة وحزناً إلاّ أنّه يصمّم على الكتابة لغادة السّمّان؛ ففعل الكتابة في نظره هو فعل الحبّ بأجمل أشكاله: "سأظلّ أكتبُ لكِ، سأظلّ، وسأظلّ أكتب أحبّكِ، وستظلّين بعيدة،... أنتِ تسكنين فيّ. أنتِ، وليس كلماتكِ، كما كتبتِ أنتِ".(٨٨)

والتّعامل مع منجز الكتابة هو سلوك محبّة في نظر غسّان كنفانيّ؛ لذلك نجده يحمل معه كتب غادة السّمّان إلى كثير من الأماكن التي يذهب إليها، ويقوم بتوزيعها على المهتمين من الصّفوة من المبدعين والنّقاد والإعلاميين، ويعرّف بها "وزّعت كتبكِ، تحدّثتُ عنكِ كثيراً، فكّرتُ بكِ، بك وحدكِ".(٨٩)

الحبّ زمناً للتّاريخ عند الرّجل:

يُقدّم التّاريخ عبر كتاب "رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان" بهذه الرّسائل، فيغدو التّاريخ هو صورة زمنيّة لا قيمة لها خارج إطار هذه الرّسائل، فهي ليست محرّكاً بقدر ما هي إطار شكليّ يؤطّر هذه الرّسائل في ظلّ الزّمن الحقيقيّ في هذه الرّسائل، وهو الحبّ؛ ففي إحدى الرّسائل نعرف أنّ غسّان كنفانيّ سوف يذهب إلى مؤتمر عام ١٩٦٦ في يوم ١٩٦٦/١١/٣٠ إذ يقول لها: "لقد أجّلوا المؤتمر إلى ٣٠، لكنّهم سيسفّروننا غداً الأحد إلى غزّة كي نشترك بمآتم التّقسيم. يا للهول".(٩٠)

نعرف من رسالته المؤرّخة بتاريخ ١٩٦٧/٢/٤ أنّ منظّمة التّحرير قد قرّرت فجأة خلال وجود غسّان الكنفانيّ في القاهرة أن تقاطع المؤتمر السّياسيّ لاتّحاد الصّحفيين العرب حيث كان مُنتدباً لتمثيل فلسطين في هذا المؤتمر(٩١)، وهو يعلّق على هذا الأمر بقوله: "هكذا وجدتني فجأة بلا عمل، وجعلني هذا الوضع أكثر استعداداً لأن أسقط في المرض الذي كنتُ أترقّبه بجزع".(٩٢)

في الوقت الذي يكتب فيه رسالة إليها بتاريخ ٣ نيسان ١٩٦٧ حول مشاركته في مؤتمر الكتّاب الأفروأسيويّ، تكون غادة عندئذ بعيدة، ولا تشارك في المؤتمر على الرّغم من وجود اسمها في قائمة الكتّاب الذين يمثّلون سوريا، وهو يتذكّر جملتها دون توقّف: "إنّ ما يدور مفجع حقّاً؟". (٩٣)

صراع الوعي والواقع عند الرّجل في ظلّ الحبّ:

على الرّغم من استغراق غسّان كنفانيّ في حبّه لغادة السّمّان في هذه الرّسائل إلاّ أنّ هذا الاستغراق لا يستطيع أن يتعالى على حقيقة أنّ المناضل المفكّر المبدع الواعي في هذا الفنّان الفلسطينيّ الكبير لم يمنعه من أن يدرك ذلك الصّراع الذي يعيشه بين طرفي الوعي والواقع؛ لذلك يدرك تماماً المساحة الحقيقيّة بين النّضال بالكلمة والنّضال بالنّفس، ويرى نفسه متواضع العطاء في إزاء أولئك الأبطال الذين يحملون السّلاح، ويدافعون عن وطنهم فلسطين بكلّ جرأة وبطولة دون أن يملكوا سلاح الكلمة مثله، وهو يسجّل لنا هذا الإدراك في إحدى رسائله لغادة السّمّان عندما يقول لها: "إنّني معروف هنا-يعني غزّة في ١٩٦٦/١١/٢٩م-وأكاد أقول "محبوب" أكثر كنتُ أتوقّع، أكثر بكثير، وهذا

شيء في العادة يذلّني؛ لأنّني أعرف بأنّه لن يتاح لي الوقت لأكون عند حسن ظّن النّاس، وأنّني في كلّ الحالات سأعجز في أن أكون مثلما يتوقّعون منّي. طوال النّهار واللّيل أستقبل النّاس، وفي الدّكاكين يكاد الباعة يعطونني ما أريد مجاناً، وفي كلّ مكان أذهب إليه أستقبَل بحرارة تزيد شعوري ببرودة أطرافي ورأسي وقصر رحلتي إلى هؤلاء النّاس وإلى نفسي. إنّني أشعر أكثر من أيّ وقت مضى أنّ كلّ قيمة كلماتي كانت في أنّها تعويض صفيق وتافه لغياب السّلاح وأنّها تنحدر الآن أمام شروق الرّجال الحقيقيين الذين يموتون كلّ يوم في سبيل شيء أحترمه، وذلك كلّه يشعرني بغربة تشبه الموت وبسعادة المحتضر بعد طول إيمان وعذاب، ولكن أيضاً بذل من طراز صاعق".(٩٤)

إذن غسّان كنفانيّ المبدع الكبير كان يعتقد أحياناً –تحت تأثير إعجابه بالمناضل الفلسطينيّ- أنّ الدّفاع عن قضيّته بقوة الكلمة هو أقلّ بكثير من الدّفاع عنها بقوة السّلاح الذي يحمله الرّجال الذين يصفهم بالحقيقيين، لكنّه كان- في جلّ أوقاته- يؤمن بعمق بأنّ "الشّكل الثّقافيّ في المقاومة يطرح أهميّة قصوى ليست أبداً أقلّ قيمة من المقاومة المسلّحة ذاتها، وبالتّالي فإنّ رصدها واستقصاءها وكشف أعماقها تظلّ ضرورة لا غنى عنها لفهم الأرض التي ترتكز عليها بنادق الكفاح المسلّح".(٩٥)

الإحالات والمراجع والمصادر:

١- غسّان كنفانيّ: أديب ومناضل ومفكّر وصحفي فلسطينيّ، وُلد في عكا عام ١٩٣٦، وتوفّي في بيروت عام ١٩٧٢، تمّ اغتياله على يدّ جهاز المخابرات الإسرائيليّة (الموساد) عندما كان عمره ٣٦ عاماً بتفجير سيارته في منطقة الحازميّة قرب بيروت. كتب بشكل أساسيّ في مواضيع التّحرّر الفلسطينيّ، وهو عضو المكتب السّياسيّ في الجبهة الشّعبيّة لتحرير فلسطين. عمل رئيس تحرير في جريدة (المحرّر) اللّبنانيّة، كما عمل قبل ذلك في عضوية تحرير المجلات التّالية (الرّأي) في دمشق، و(الحريّة) في بيروت، وأصدر فيها (ملحق فلسطين)، ثم انتقل للعمل في جريد الأنوار اللّبنانيّة. حين تأسّست الجبهة الشّعبيّة لتحرير فلسطين عام ١٩٦٧ قام بتأسيس مجلّة ناطقة باسمها حملت اسم (مجلّة الهدف). تزوّج من سيّدة دنماركيّة، ورزق منها بولدين، وهما فايز وليلى. أُصيب بمرض السّكري والنقرس، وعانى منهما آلاماً مبرحة. له الكثير من الإبداعات القصصيّة والرّوائيّة والمسرحيّة

والدّراميّة إلى جانب الكثير من الدّراسات النقدية والمقالات الفكريّة، وقد جُمعت بعد موته في أربعة مجلّدات ضخمة.

نال من الجّوائز: جائزة أصدقاء الكتاب في لبنان عن روايته (ما تبقّى لكم) عام ١٩٦٦، وجائزة منظّمة الصّحفيين العالميّة عام ١٩٧٤، وجائزة اللّوتس عام ١٩٧٥، ووسام القدس للثّقافة والفنون عام ١٩٩٠.

٢- غادة السّمّان: هي كاتبة وأديبة سوريّة، وُلدتْ في عام ١٩٤٢، حاصلة على شهادة الدّكتوراة من جامعة السّوربون في الاقتصاد السّياسيّ. عملتْ في الصّحافة، وطار نجمها في بيروت آنذاك. ثم سافرتْ غادة إلى أوروبا، وتنقلّت بين معظم العواصم الأوروبيّة، وعملتْ مراسلة صحفية. لها الكثير من الأعمال المنشورة، مثل: (أعلنت عليكَ الحبّ)، و("زمن الحبّ الآخر)، و(الجسد حقيبة سفر)، و(السّباحة في بحيرة الشّيطان)، و(ختم الذّاكرة بالشّمع الأحمر)، و(اعتقال لحظة هاربة)، و(مواطنة متلبّسة بالقراءة)، و(الرّغيف ينبض كالقلب)، و(صفارة إنذار داخل رأسي)، و(عيناكِ قدري)، و(لا بحر في بيروت)، و(ليل الغرباء)، و(رحيل المرافئ القديمة)، و(بيروت)، و(كوابيس بيروت)، و(الرّواية المستحيلة)، و(ليلة المليار)، وغيرها من الكثير من الأعمال المنشورة في الكثير من الطّبعات.

٣- غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، قدّمت لها غادة السّمّان، ط٦، ملحق مقتطفات من آراء نقديّة في الكتاب، بدري عبد الملك، نقلاً عن مجلّة الحسام١٩٩٢/١٠/٢٥، دار الطّليعة للطّباعة والنّشر، بيروت، لبنان، ٢٠١٣، ص١٣٩

٤- غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان: ملحق مقتطفات من آراء نقديّة في الكتاب، إلياس خوري"نقلاً عن ملحق جريدة النّهار البيروتيّة، ١٩٩٢/٧/٢٥، ص ١١٥

٥- غسّان كنفانيّ: الأعمال الكاملة: الدّراسات الأدبيّة، مجلد ٤، ط٢، مؤسسّة الأبحاث العربيّة، المقدّمة بعنوان: غزال يبشّر بزلزال، بقلم محمود درويش، بيروت، لبنان، عام ٢٠١٠، ص١٧

٦- غسّان كنفانيّ: الأعمال الكاملة: الدّراسات الأدبيّة، ص٥٤

٧- غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، محاولة تقديم وفاء لعهد قطعناه، ص١٤

٨- غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، ملحق مقتطفات من آراء نقديّة في الكتاب، جمال الدّين الخضور، نقلاً عن مجلّة الهدف، ١٩٩٢/١٠/١٨، ص١٢٠

٩ – نفسه: ملحق مقتطفات من آراء نقديّة في الكتاب، خليل السّواحريّ، نقلاً عن جريدة الرّأي الأردنية، ١٩٩٢/٩/١١، ص١٢٨

١٠- غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، ملحق مقتطفات من آراء نقديّة في الكتاب، إيفان مرشيليان ، نقلاً عن مجلّة الدّوليّة، ١٩٩٣/٢/٢٤، ص١١٧.

١١- غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، محاولة تقديم وفاء لعهد قطعناه، ص٥

١٢- هيثم صعب: فلسفة الحبّ، جزء ١، ط١، مقالة بعنوان الحبّ الإبداع، فكر القلب: ف. د. غوبين، دار المدى للثّقافة والنّشر، بغداد- دمشق-بيروت، ٢٠١٠، ص٢٠٥

١٣- غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، ص١٥

١٤- نفسه: ص١٦

١٥- نفسه: ص١٧

١٦- نفسه: ص٢٨

١٧- نفسه: ص٢٩

١٨- نفسه: ص١٧

١٩- نفسه: ص٩٠

٢٠- غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، ملحق مقتطفات من آراء نقديّة في الكتاب، حسين سرمك حسن، نقلاً عن مجلّة دراسات عربيّة، شباط/فبراير١٩٩٩، ص١٢٥

٢١- غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، ص١٥

٢٢- نفسه: ص١٧

٢٣- نفسه: ص٤٨

٢٤- نفسه: ص٨٩

٢٥- نفسه: ص٢٩٢

٢٦- نفسه: ص٢٩٩

٢٧- نفسه: ص٢٩٢

٢٨- غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، ملحق مقتطفات من آراء نقديّة في الكتاب، أحمد الأشقر، نقلاً عن جريدة الصّوت، ٢٠١١/١٠/٢٩، ص١١١

٢٩- نفسه: ص١٦

٣٠- نفسه: ص١٦

٣١- نفسه: ص٢٨

٣٢- نفسه: ص٢٩

٣٣- نفسه: ص٢٧

٣٤- نفسه: ص٣٨

٣٥- نفسه: ص٣٩

٣٦- نفسه: ص٥٩

٣٧- غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، ملحق مقتطفات من آراء نقديّة في الكتاب، إحسان عبّاس، نقلاً عن مجلّة الحصاد، قبرص، ١٩٩٢/١٠/٩، ص١١٧

٣٨- غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، ص٥٩

٣٩- نفسه: ص٨٠

٤٠ – نفسه: ص٢٩٢

٤١- نفسه: ص٢٩٤

٤٢- نفسه: ص٢٩٤

٤٣- نفسه: ص١٦

٤٤- نفسه: ص٢٤

٤٥- هيثم صعب: فلسفة الحبّ، جزء ٢، ط١، مقالة بعنوان أعمار الحبّ: فاسيلي فاسيليفتش روزانوف، دار المدى للثّقافة والنّشر، بغداد ودمشق وبيروت، ٢٠١٠، ص٣٠٠

٤٦- الشّبق هو لذّة الاستمتاع الجنسيّ أو استعداد المرء الذي يدفعه للاهتمام بالمسائل الجنسيّة والتّلذّذ بالتّجربة الجنسيّة أكثر من أيّ شخص عادي: أحمد خورشيد النورجي: مفاهيم في الفلسفة والاجتماع، ط١، وزارة الثّقافة والإعلام، بغداد، العراق، ١٩٩٠، ص١٥٥

٤٧- غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، محاولة تقديم وفاء لعهد قطعناه، ص٥

٤٨- أماندا لوي: التّفكير المثير جنسيّاً، ط١، الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ٢٠١١، ص٥٧

٤٩- بينار إيلكاركان: المرأة والجنسانيّة في المجتمعات الإسلاميّة، ترجمة معين الإمام، مقالة بقلم ليلى أحمد بعنوان: الثّقافة العربيّة والكتابة حول جسد المرأة، ط١، دار المدى للثقافة والنّشر، بغداد، العراق، ٢٠٠٤، ص٦٥.

٥٠- فايز محمود: مشكلة الحبّ العناء الإنسانيّ دون جدوى، ط١، دار النّسر، عمان، الأردن، ٢٠٠١، ص٤٢

٥١- دافيد لو بروتون: سوسيولوجيا الجسد، ترجمة إدريس المحمدي، ط١، روافد للنّشر والتّوزيع، القاهرة، مصر، ٢٠١٣، ص١٦

٥٢- فايز محمود: مشكلة الحبّ العناء الإنسانيّ دون جدوى، ط١، دار النّسر، عمان، الأردن، ٢٠٠١، ص٤٢

٥٣- خالد منتصر: الحبّ والجسد، ط١، دار الخيال، القاهرة، عمان، ١٩٩٦، ص٩

٥٤- عبد الله الغذّامي: ثقافة الوهم: مقاربات حول المرأة والجسد واللّغة، ط١، المركز الثّقافي العربيّ، بيروت، لبنان، ص٣٨

٥٥- أمبرتو إيكو: آليّات الكتابة السّرديّة، ترجمة سعيد بنكراد، ط١، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، اللاذقية، سوريا، ٢٠٠٩، ص٣٥

٥٦- كين روبنسون: صناعة العقل دور الثقافة والتّعليم في تشكيل عقلك المبدع، ترجمة رامة موصللي، ط١، وزارة الثقافة الأردنيّة، عمان، الأردن، ٢٠٠٩، ص١٩١

٥٧- حفناوي بعلي: مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة، ط١، منشورات أمانة عمان، عمان، الأردن، ٢٠٠٧، ص٢٣

٥٨- جون ستيوارت ميل: عن الحريّة، ترجمة هيثم الزّبيدي، ط١، وزارة الثّقافة الأردنية، عمان، الأردن، ٢٠٠٩، ص٧

٥٩- عزّ الدين الخطابي: السّلطة والعنف، ط١، مقاربات: مجلّة العلوم الإنسانيّة، آسفي، المغرب، ٢٠٠٩، ص١٢

٦٠- محمد عبيد الله: أوراق مختارة من ملتقى السّرد العربيّ، ورقة بحثيّة بقلم سليم النّجار: الرواية العربيّة إشكاليّة الدّيمقراطيّة بين الوعي والتّكريس، ط١، منشورات رابطة الكتاب الأردنيين بدعم من وزارة الثقافة الأردنيّة، عمان، الأردن، ٢٠١١، ص١٦٧

٦١- رائد جميل عكاشة: الخطاب الثّقافيّ متغيّرات الواقع العربيّ الجديد، من كتاب مؤتمر الثّقافة الوطنيّ الثّقافة والمتغيّرات، ط١، وزارة الثّقافة الأردنيّة، عمان، الأردن، ٢٠١٣، ص١٤١

٦٢- غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، ص٤٢

٦٣- نفسه: ص٤٢

٦٤- نفسه: ص٤٨

٦٥- نفسه: ص٥٩

٦٦- نفسه: ص٦٦

٦٧- نفسه: ص٧٨

٦٨- فراس السوّاح : لغز عشتار الألوهية المؤنثة وأصل الدين والأسطورة ، ط١، دار سومر، قبرص، ١٩٨٥، ص١٧٧ – ١٩٧

٦٩- كولن ولسن : المعقول واللاّمعقول، ترجمة أنيس زكي حسن، ط٢، دار الآداب، بيروت، لبنان، ١٩٧٢، ص٢٠٤

٧٠- نوال السّعداوي: المرأة والجنس، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، عمان، ٢٠٠٥، ص٥٩

٧١- فراس السّواح: لغز عشتار الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، ص١٧٨

٧٢- علي الشّوك: جولة في أقاليم اللغة والأسطورة، ط١، دارالمدى، دمشق-بغداد-بيروت، ١٩٩٤، ص١٠

٧٣- نفسه: ص١٨٠

٧٤- غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، ص١٦

٧٥- غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، محاولة تقديم وفاء لعهد قطعناه، ص٩

٧٦- نفسه: ص١٠

٧٧- غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، ملحق مقتطفات من آراء نقديّة في الكتاب، أحمد بزّون، نقلاً جريدة السفير البيروتيّة، ١٩٩٢/٨/٢٠، ص١١١

٧٨- غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، محاولة تقديم وفاء لعهد قطعناه، ص٦

٧٩- غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، ملحق مقتطفات من آراء نقديّة في الكتاب، أحمد الأشقر، نقلاً عن جريدة الصّوت، ٢٠١١/١٠/٢٩، ص١١١

٨٠ - غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، ملحق مقتطفات من آراء نقديّة في الكتاب، إحسان عبّاس، نقلاً عن مجلّة الحصاد، قبرص، ١٩٩٢/١٠/٩، ص١١٠

٨١- جون ستيوارت ميل: عن الحريّة، ترجمة هيثم الزّبيدي، ط١، وزارة الثّقافة الأردنية، عمان، الأردن، ٢٠٠٩، ص٧

٨٢- غسّان كنفانيّ: رسائل غسّان كنفانيّ إلى غادة السّمّان، ص٢٤

٨٣- نفسه: ص٢٩

٨٤- نفسه: ص٣٨

٨٥- نفسه: ص٢٥

٨٦- نفسه: ص٤٣

٨٧- نفسه: ص٥٤

٨٩- نفسه: ص٣٣

٩٠- نفسه: ص٦٨

٩١- نفسه: ص٣٣

٩٢- نفسه: ص٣٢

٩٣- نفسه: ص٤٢

٩٤- نفسه: ص٧٧

٩٥- نفسه: ص١٦

..... ❖❖❖❖❖ .....